

## تفسير ابن كثير

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ  
أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ

( ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ) قال ابن عباس وغيره : يعني  
القرآن . ( لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ) أي : لو أنهم عملوا بما في الكتب التي  
بأيديهم عن الأنبياء ، على ما هي عليه ، من غير تحريف ولا تغيير ولا تبديل ، لقادهم ذلك  
إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ فإن كتبهم

ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتما لا محالة . وقوله : ( لأكلوا من فوقهم ومن تحت  
أرجلهم ) يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض . وقال  
علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ( لأكلوا من فوقهم ) يعني : لأرسل [ السماء ]  
عليهم مدرارا ( ومن تحت أرجلهم ) يعني : يخرج من الأرض بركاتها . وكذا قال مجاهد  
وسعيد بن جبيرة وقتادة والسدي كما قال [ تعالى ] ( ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا  
لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض [ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ] )

[ الأعراف : 96 ] ، وقال : ( ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس )

ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون [ ] ( الروم : 41 ) . وقال بعضهم : معناه (

لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ) يعني : من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء

. وقال ابن جرير : قال بعضهم : معناه : لكانوا في الخير ، كما يقول القائل : " هو في الخير

من قرنه إلى قدمه " . ثم رد هذا القول لمخالفة أقوال السلفوقد ذكر ابن أبي حاتم عند

قوله : ( ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ) حديث علقمة ، عن صفوان بن عمرو ، عن

عبد الرحمن بن جبير بن نفيير عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يوشك أن

يرفع العلم " . فقال زياد بن ليبيد : يا رسول الله ، وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن

وعلمناه أبناءنا؟! قال ثكلتك أمك يا ابن ليبيد ! إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة

أولست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله "

ثم قرأ ( ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ) هكذا أورده ابن أبي حاتم حديثا معلقا من أول

إسناده ، مرسلا في آخره . وقد رواه الإمام أحمد بن حنبل متصلا موصولا فقال : حدثنا

وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد عن زياد بن ليبيد قال : ذكر النبي صلى

الله عليه وسلم شيئاً فقال : " وذاك عند ذهاب العلم " . قال : قلنا : يا رسول الله ، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال : " ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد إن كنت لأراك من أفتقه رجل بالمدينة أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء " وكذا رواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن وكيع بإسناده نحوه وهذا إسناد صحيح . وقوله : ( منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ) كقوله تعالى : ( ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ) [ الأعراف : 159 ] ، وكقوله عن أتباع عيسى : ( فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم [ وكثير منهم فاسقون ] ) [ الحديد : 27 ] . فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد ، وهو أوسط مقامات هذه الأمة ، وفوق ذلك رتبة السابقين كما في قوله تعالى : ( ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها ) الآية [ فاطر : 32 ، 33 ] .  
والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة يدخلون الجنة . وقد قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا أحمد بن يونس الضبي ، حدثنا عاصم بن علي ، حدثنا

أبو معشر ، عن يعقوب بن يزيد بن طلحة ، عن زيد بن أسلم ، عن أنس بن مالك قال :  
كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " تفرقت أمة موسى على إحدى وسبعين  
ملة ، سبعون منها في النار وواحدة في الجنة ، وتفرقت أمة عيسى على ثنتين وسبعين ملة ،  
واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار ، وتعلو أمتي على الفرقتين جميعا .  
واحدة في الجنة ، وثلثان وسبعون في النار " . قالوا : من هم يا رسول الله؟ قال : "  
الجماعات الجماعات " . قال يعقوب بن يزيد كان علي بن أبي طالب إذا حدث بهذا  
الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا فيه قرآنا : ( ولو أن أهل الكتاب آمنوا  
واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ) إلى قوله تعالى : ( منهم أمة  
مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ) وتلا أيضا : ( وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه  
يعدلون ) [ الأعراف : 181 ] يعني : أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وهذا حديث غريب  
جدا من هذا الوجه وبهذا السياق . وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مروى من طرق  
عديدة ، وقد ذكرناه في موضع آخر . والله الحمد والمنة .